الفصـــل الثـــالث

الفن والمجتمـــع

لقد تبين لنـــا أن للفن أهمية كبرى بالنسبة للمجتمـــع ، فقـــد يكون ذا تأثير بالغ فى الحياة النفسية لأفراد المجتمع اذ أنه يخلق روح التضامن عن طريق الاعجاب بالاعمال الفنية وانتشار هذا الاعجـــاب بين الناس • وهذا الاعجاب ينبع من المشاركة الوجـــدانية ونحن نعرف تأثـــير هـــذه المشاركة الوجـــدانية فى حياتنـــا الاجتماعيـــــة • وفى تكوين التجمعات السياسية وغيرها •

كذلك فان الفن يزيد من الروابـــط بين الفـــرد والمجتمـــع ، ويدعم الصلات بين الافراد والمجتمع ، وهو لا يعرف حدودا أو حواجز سياسية ، فقد نعجب بالموسيقى الغربية وبآثار الرسم والنحت عند المثاليين الغربيين، وآثار الادب العالمى لأنها تعبر عن معان انسانية خالدة •

اذن فالفن له تأثير واضح فى ازالة الفوارق السياسية وتعبيد الطرق أمام وحـــدة بنى البشر واجتماعهم على الخير • فضـــلا عن أهميـــة الفن الاجتماعية الخاصة من استخدامه فى مناسبات عدة مثل حفلات الزواج • فنحن نستخدم فيها الفن كالغناء والرقص والمـــوسيقى •••• الـــخ • وفى الاعياد الوطنية وحفلات الاستقبال ــ وكذلك للفن أهمية مادية اقتصادية ، فالصناعات الكبرى ، وقد قامت على طريقة التركيز فى الانتاج والتوسع فى التصدير ، وما ينتج عن هذا من احترام المنافســـة بين المنتجين وحـــدت نفسها فى حاجة شديدة الى الفن الجميل لتكسب عن طريقه أسواقا جديدة وزبائن جدد ، فالاعلان الجميل عن الســـلع ، وتجميل مظهـــرها ، وتغليفها بطريقة فنية يجذب المشترين ويضمن للسلع الرواج[1] •

---

(١) فلسفة الجمال : الدكتور محمد على أبو ريان ص ٢٢٠ .

وظائف الفن الاجتماعية :

ويمكن أن نلخص وظائف الفن فى المجتمع على النحـــو التالى فالفن وسيلة للتسلية والترويح عن النفس ، ومجدد للنشاط ، ويقضى على الركود ورتابة الحياة ، بالاضافة الى وظيفته الروحية : ففى المجتمعات الصناعيـــة مثلا نجد أن الفن يعمل على تخفيف الروح المادية وحل الازمات النفسية فى هذه المجتمعات الصناعية • وللفن وظيفة اجتماعية أخـــرى : فان دور كايم يرى مثل جروس ان الفن يوجد وحدة اجتماعية متماسكة وهو وسيلة لخلق التضامن ، فالحفلات الفنية التى يقيمها أعضاء هيئة اجتماعية توحـــد فيما بينهم وتولد روحا اجتماعية مشتركة قوية ، كذلك فى الاعياد[1] ، كذلك بين سائر الفنون الاخرى فى المجتمعات المتأخرة كما رأينا من قبل نجد أن للفن وظيفة اجتماعية لأنه الوسيلة التى يتوحد بها أفراد القبائل والعشائر حول آلهتهم ، لأن الرقص فى هذه المجتمعات له طابع دينى ، أى أن الرقص عند الشعوب المتأخرة عامل هام للتوحيد بين الناس •

ولكن بالنسبة للشعوب الراقية فان الموسيقى هى العامل الذى يوحد بين الناس وذلك لعدة أسباب •

أولا : سبب تاريخى وهـــو أن المـــوسيقى فى العهـــود والمجتمعـــات الحديثة • فهى الفن الحديث الاصيل •

ثانيا : أن الحياة فى المجتمعات الحـــديثة تقـــوم على الديمقـــراطية والموسيقى فن ديمقراطى •

ثالثا : بسبب الوجود القومى والنهوض به فى موسيقى يحفظها الكبار والصـــغار •

---

(١) الفن وعلم الاجتماع الجمالى : الدكتور عبد العزيز عزت ص ٣٨ .

والفن بالاضافة الى ذلك يخلق موجات وتيارات عارمة من المشـــاركة الوجدانية ، ويؤدى بذلك الى الوحدة الاجتماعية والتماسك الاجتماعى عن طريق النظارة والمعجبين •

وظيفة الفن التربوية[1] :

للفن أيضا وظيفة تربوية . فهو يعمل على ترفيه العقل بفهم أصـــول الفن وترقية المشاعر ، وهووسيلة لتربية الوجدان ووسيلة للتربية الاخلاقية وهذا ما يدعو الدول الراقية بأن تهتم بالفنون وتدرسها فى مدارسها ، فتهتم بالموسيقى والتمثيل وتنشر السينما المـــدرسية وغير ذلك ممـــا يدل على أن الفنون وسيلة فعالة ومهمـــة من الناحيـــة التربوية فيما تمس حياة العقل والاخـــــلاق •

وظيفة الفن العامية :

يعتمد علماء الآثار والتاريخ كثيرا على الفنـــون التاريخيـــة والفنون القديمة بمعرفة ألوان الحياة الاجتماعية التى كانت سائدة فى تلك الازمان ، فيمكنهم عن طريقها كشف ما كان عليه العقل الجمعى الذى كان يســـود فى تلك العهود ــ وهذا واضح فى آثار مصر القديمة . حيث يمثل Archi - tecoure فلسفة خاصة بالحياة والموت ، ويعبر عن مدى نفـــوذ الناحية السياســـية والدينية فى حياة المجتمع المصرى القديم وغير ذلك من النواحى الاجتماعية التى تتفرع من أشكال الفنون الجميلة ، والتى بقيت على مر العصور •

الوظيفة الدعوية للفن :

وهى وظيفة اشتقها من أهمية الرعاية فى المجتمعات الحديثة •

---

(١) Read فى كتابه الفن والمجتمع ص ٩٦ .
عن كتاب الفن وعلم الاجتماع الجمالى ص ٤٠، ٤١ الدكتور عبد العزيزعزت

الدعاية التجارية ، والمؤسسات الاقتصادية وما يؤثر فى حياة الافراد والجماعات ومؤسسات السياحة •

ولكل ناحية من الفنون ناحية تناسبه بالنسبة للدعاية فمثـــلا : الرسم الكاريكاتيرى له أهمية فى الدعاية السياسية « وهذا واضـــح فى مصر الآن وفى كثير من دول العالل » ، والتصوير له أهمية فى الدعاية الاقتصـــادية ، والنحت فى الدعاية الادبية للشخصيات البارزة فى المجتمـــع ، والعمارة لها أهميتها التاريخية كتخليد المواقع والابطال • كذلك الغناء الجمعى : مثـــل النشيد الوطنى ، والدعوة للوحدة والحرب وحفـــلات الرقص والتمثيل ـــ والخطابة والشعر « وقد ظهـــر أثر الغناء الجمعى فى مصر وقت العـــدوان حيث ألهبت الاناشيد الوطنية الحماس الوطنى للدفاع عن البـــلاد ضـــد المعتدى » • هذه الابواب التى يغلب فيها استخدام بعض الفنون فى الدعاية فضلا عن أنه يمكن أن يستخدم الفن الواحـــد فى أكثر من باب معـــين من أبواب الحياة العامة • ولا يجب أن ننسى الوظيفة الدينية للفن : فان الدين يستخدم الفن فى المناسبات الدينية المختلفة سواء بالرســـم أو عن طـــريق الموسيقى الدينية ، وقـــد برع فنانوا عصر النهضة فى رسم الشـــخصيات الدينية مثل المسيح والعذراء ونفس الشىء عند مساجد المسلمين[1] •

ويمكن أن نضيف الى هذا تأثير الفن فى الاخلاق ، فبالرغم من أن الفن لا يخضع للاخلاق الا أن الانتاج الفنى يؤثر فينا من الناحية الاخلاقية فى كثير من الحالات وذلك حسب فكرة الفنان التى تكمن وراء خلقـــه الفنى • فربما كانت القصيدة الشعرية واقعة لنا الى أن نبتعد عن الرذيـــلة ونلتزم حـــدود الفضيلة •

---

(١) الفن وعلم الاجتماع الجمالى ص ٤٠

الوظيفة المنطقية للفن :

قد يتبادر الى الاذهان أنه لا يركن الكلام عن وظيفة منطقية للفن وقد قال بوالو Boileau بالفعل أنه لا يمكن أن نخلط بين الجمال والحق ، وأن الفن لا ينبع من العقل الخالص الذى هو أساس المنطق ، وقد رأينا أن أفلاطون وحد بين الحق والجمال ولكن نظريته هذه لم يعد لها مؤيدين فى عصرنا هذا فالحقيقة المنطقية تختلف كثيرا عن الظاهرات الجمالية ولو أن الحق قد يكون جميلا ولكن هذا أمر عرضى بالنسبة له .

وبالرغم من الاعتراضات الموجهة الى تطابق الجمال على الحق الا أننا نجد أن العمل الفنى بما يبدوا فيه من انسجام ووحدة وكأنه يقنع عقلنا كما يؤثر علىقوانا الاخرى ومن ثم فان العلاقات المنطقية قد تكون ذات مسحة جمالية ، ويضرب أصحاب هذا الرأى مثلا لذلك بقولهم أن البرهان الرياضى البسيط النافذ يبدو أمامنا كما لو كان يحمل نوعا من الطلاوة والبهاء بحيث يكون القول أن العلم فى مجمله نوع من النشاط الذى يعبر عن جلال العقل وبهائه وروعته وثمة أمر آخر وهو أن الانسجام الذى هو السمة المميزة للجمال انما يعتبر فى نظر العقل تنظيما ما[1] .

فاذا كان التنظيم يدخل نظام منطقى معقول ، فانه بذلك يصبح كأثر من آثار العقل كما هو الحال فىنظام ا لمخلوقات وتطورها وفى نظام الكون وتماسكه بحيث يلمحون هذا النظام محلى للعقل ومهبطا للجمال فى نفس الوقت .

وهكذا يبدو أن الفن يتدخل فى حياتنا الاجتماعية ويتعلل فى صميم هذه

---

(١) فلسفة الجمال : الدكتور محمد على أبو ريان .
Encyclcpédie Française : L'Art pour l'art lére partie : Ch. lalo.

الحياة بحيث يصبح الفن مبدأ للحياة كما يقول جويو Cuyau وأن مبدأ الفن هن الحياة نفسها •

وهذه الصلة الوثيقة بين الفن والمجتمع كانت محل اهتمام معظم الكتاب الفنيين من أمثال شارل لالو Lalo عالم الجمال الفرنسى فتبدو من كتاباته العديدة مدى ارتباط الفن بالمجتمع وتأثره به وأثره عليه •

الفن والمجتمع :

يمكن النظر الى الفن من ثلاث نواحى رئيسية :

(أ) ناحية خاصة بعدم الاكتراث أو بالرفض

L,indifférence ou du refus

(ب) وأخرى خاصة بالاهتمام أو الملاحظة

L'attantion ou de l'observa - tion

(ج) والثالثة بالخضوع أو المعارضة

La soumission ou de l'opposi - tion

والناحية الاولى تفسح مجالا لنظريات الفن للفن L'Art pour l'art والثانية تختص بالفن الحربى أو الفن السياسى ، أما الثالثة فتختص بالفن الاجتماعى •

والذى يهمنا فى هذا المجال هى الطريقة التى يقدر بها الشعب أو الجمهور الفنون والفنانين فى كل عصر ، والظاهرة الملحوظة هى أن المجتمع ينبذ الفنانين عديمى النفع الذين لا يستطيعون حتى ملأ أوقات الفراغ أو الندوات ، ويعتبرهم عالة عليه ويلقى بهم بعيدا عنه الى الوحدة والعزلة • وهى الخاصة « بالفن للفن » •

ويعتبر العمل الفنى دون منازع الصلة المتبادلة بين الفرد والمجتمع الذى هو جزء منه •

واذا نحن فرقنا فى كل فروع الفن بين ما نسميه الموضوع والغاية من ناحية ، وبين ترتيب الآلات الموسيقية مثلا حسب الالحـان ، والصـحبة والاكسسوار من ناحية أخرى ، ونسبنا المجموعة الاولى للفرد ، والمجموعة الثانية للبيئة فان هذا يرجـع الى أن الفنان مثـل أى كائن بشرى يبـدى مجموعة من ردود الافعال بعضها فردى وتأتى من صراع داخـل نفسه ، والبعض الآخر يأتى من كونه عضـو فى المجتمـع وكائن اجتماعى لا يمكن الاستغناء عنه — وهذا التعارض هـو أصل الالتباس فى الدور الاجتماعى للفنان • ونذكر من تاريخ الروابط بين الفنان والمجتمع أن مؤتمرات المؤلفين التى قامت فى موسكو فى أغسطس ١سنة ١٩١٤ تشـير الى تاريـخ بين ، فأولوية العمل الفنى ذو الصفة ، على العمل الخاص بالدعاية عرضت لدى الجميع وخاصة من المسئولين فى الدولة • ولكن هناك سؤال يتعرض له كتاب الفن وهو ، على الفن مستقل عن البيئة •

L'art est - il indépendant du milieu ?

وللاجابة على ذلك فان لالو Lalo يرى أن الفن لا يفترق عن البيئة فالفنان يتأثر ببيئته وبظروف عصره ويعكسها فى أعماله الفنية والادبية •

وهناك عناصر مادية يتجسد فيها العمل الفنى مثل الالوان والاصوات وما الى ذلك من الاشياء المادية المستخدمة فى الفن ، كذلك هناك عنصر مادى تقريبا يظهر فيه العمل الفنى ويتطبع عليه تماما وهو الاشـكال القوية فى عصوره ، فهذه الاشكال تختلف تبعا لطبيعة العمل الفنى أو نوعه سواء كان شعر موسيقى مسرحية أو أى لون آخـر من ألوان الفنون والآداب • فهى المقطع الشعرى بالنسـبة للشـاعر ، أما بالنسبة للـكاتب المسرحى ، هى التقسيم الى عدة فصول ، وهل يسود أم لا يسود قانون الحالات الثلاث ؟ وهكذا أى أن هذه الاشكال هى التى يتبعها المـؤلف والفنان فى عمـله حتى

يعطيه الصورة التى تناسب البيئة التى يعيش فيها وقد تعمل العبقرية على هدم هذه الاشكال التى يفرضها عليها الوسط •

وبالنسبة للغرض المادى للعمل الفنى :

فاننا نجد أن اختراع آلة الطباعة كان له أثر كبير على شكل العمل الفنى فقد غير الاديب من طابعه الفنى بعد أن تأكد من أن عمله سيصل الى ملايين القراء ، مما زاد بالطبع من انتشار العمل الفنى وبالتالى كان لذلك أثر على اتقان المؤلف لعمله حتى يحوز رضاء المجتمع •

كذلك المسرحيات لم تعد تقام عروضها فى الاجران وأفنية القصور بل صأبحت لها أبنية خاصة أقيمت لهذا العرض ، ولم تصبح وقفا على الاعياد والمناسبات الكبيرة فقط بل أصبحت تعرض كل يوم وكذلك أصبح دور المرأة يسند الى النساء على عكس ما كان من قبل • بل ان الاعمال الموسيقية لم تصبح قاصرة على الكنيسة فقط بل شملت كل المجالات •

ونضيف الى ذلك أنه لا توجد واقعة يتحمل عبئها العمل الفنى ويظهرها الا اذا كانت تابعة من البيئة الخاصة به ؛ وبالتغيرات التى تحدث فى نظامها السياسى والاقتصادى والادبى •••• الخ •

أى أن البيئة تفرض على الاشكال الفنية الطابع الذى تبدو فيه فاذا كانت هذه البيئة متقدمة كان لهذا أثر على الفنون والاداب وبالتالى على الفنانين • فالفن يتبع دائما تطور البيئة والمجتمع الذى يعيش أو التى يعبر عنها بألوانه •

الموضوع : Sujet

وهو العنصر الروحانى للعمل الفنى ؛ والمقصود هنا ليس الموضوع الموصى به commandé أو المطلوب ، أو الموضوع المقتبس من عمل مطابق للذوق الحديث مثل : Les Dianes, les Amadis

بل هناك موضـــوعات تكون هى الطابـــع الســـائد "dans l'air" فى عصر من العصور ، يعالجها عدد من الفنانين فى وقت واحد •

أما فى الرسم : فلا يمكننا تجاهل صدق تلميحات تين Taine فى كتابة فلسفة الفن عن الرابطة بين الموضوعات التى ظهـرت فى عصرها والحـــالة الادبية لهذا العصر ــ وأثر البيئة على الموضـــوع فى الكوميـــديا الالهيـــة La Divine Comédie ظاهر بوضوح ، وهناك قائمة من الاعمال الفنية ترجع الى ما قبل القرن التاسع عشر وصحوة المنهج التاريخى لم يكن أثر البيئـــة فيها معروف تماما ، ألا وهى الاعمال التاريخية •

الاتجـــاه العـــام : La tendance

ويبدو أن العمل الفنى محددا تماما بالبيئة ، فاذا نظـــرنا الى الروح التى تعالج بها الفنان موضوعه وبالذات الموضوعات التى تتفق مع الاخلاق العامة ومع الروابط الاجتماعية • فاننا نجد أن الفنان الذى يعتقد أنه يصور الماضى ، يصور فى الواقع عادات عصره والحالة الاجتماعية التى يراها حوله وهذا واضح قبل القرن التاســـع عشر حيث لم تكن قاعـــدة اللون المحـــلى موجودة تقريبا • أى أن الفنان الذى يصف الماضى فى موضوعاته نجـــد أنه يتأثر أيضا ببيئته وأخلاق عصره فتظهر فى أعماله ويصطبغ العمـــل بروح العصر الذى تم فيه •

فمثلا حالة الشـــعب فى أنطـــونيو وكليوباتره ، وفى بريتـــانيكيس Britannicus هى ما كانت عليه تماما فى انجلترا ١٥٨٠ ، وفرنســـا ١٦٧٠ ونفس الشىء ينطبق على المادة التاريخية ، ويمكن أن نرى أثر البيئة كذلك فى الروح التى تحرك العمل الفنى الموسيقى ، مثل أعمال بتهوفن ، وشوبان، وبرليوز Berlioz نأخذ كذلك المـــذاهب الفنية ، والظـــواهر الادبية ، بأن

تحديد البيئة فيها يقتصر على رد فعل ضـــدها ، أى ضـــد البيئة الادبيـــة الخالصة والبيئة الادبية السياسية والبيئة الاخلاقية ، حتى المذهب الفنى قد يكون هو الفن الذى ينطبع عليه الوسط .

ولكن سيطرأ علينا هذا السؤال : وهو هل العمل الفنى يجب أن يكون مستقلا عن البيئة ؟

لقد بينا منذ قليل سواء بالنسبة لشكل العمل الفنى أو أصله أنه محدد عموما بالبيئة التى يظهر فيها ـــ ولكنا سنتعرض لهذا السؤال : عما اذا كان العمل الفنى يميل الى الاستقلال عن البيئة ، وهل يجب عليه الهـــروب من تحكم العصر ؟ وللاجابة على ذلك سنتكلم عن واجب الفنان .

فى الواقع أنه مهما كانت رغبة الفنان فان فنه سيكون محـــددا دائما بالبيئة ، وهذه تعتبر صفة لازمة للفنان فى عدم امكانه الاستقلال عن المجتمع تماما ، كما لا يمكن للعقل أن يتخلص تماما من المـــادة ، وهذا فى أعماقـــه أحد ملامح سقوط الانســـــان .

واليوم نجد استحالة فى أن يبتعد الفنان عن بيئته وأن يجهل عصره ، ومن الملاحظ أن الاعمال الفنية الاولى للمؤلفين التى تمت فى عـــزلتهم قبل أن ينالوا قدرا من الشهرة تعتبر أعمـــالا مستقلة عن البيئة بعـــكس التى ينتجوها اليوم بعد اندماجهم فى الحياة الاجتماعية

ولكن لا يجب على الفنان قبول هذه العبودية ، والا يعتبرها فـــرض عليه لا يقاوم بل عليه أن يسير فى اتجاهه ويحاول التصدى لها والقضـــاء عليها ويظهر موهبته الخاصة .

واذا كنا نتكلم بهذه اللهجة فذلك لاننا يجب أن نعرف ما تقدم لنـــا من اخلاق الفنان ، وماذا تقـــدمه الاخـــلاق المتحضرة للعاطفة الجمـــالية

La passion esthètique وهذا بالتأكيد ما يمكن أن نعطيه للافراد كمثال عن النشاط المطلق للاهتمامات الاولية والعملية فى الوجـــود ، مظهرة فيما بينها الخضوع للبيهة • وهذا هو الدرس الذى يمكن أن نعطيه للارواح المرتبطة بالارض مقدمة لها نموذج للنفس التى وجدت راحتها فى التحـــرر من ارتباطها • وهذا الدرس عن المثـــالية يعطيه الفنان عن طـــريق اختيار موضوعه الذى يريد به أن يتفوق على ظروف الزمان والمكان التى تحـــددت بها حياته الارضية • وكذلك بالطريقة التى يعالج بها موضوعه والذى يريد أن يتجه به الى ما هو عالمى مبتعدا بعقله عما يحيط به • وذلك مثلا باعلانه ان التغيرات السياسية التى تشغل مـــواطنه تعتبر قليلة الاهمية بالنسبة له وأن بنيائه الميتافيزيقى يعيش Sous le régime de Dieu تحت حكم الآلهة •

هذه النظرة الى وظيفة الفن تتعارض تماما مع كل المذاهب الســـائدة حاليا فهذه تعلن أولا : أن العمل الفنى مهما كانت جهوده لا يمكن أن يهرب من واقع بيئته وأنه تحديد كامل • هذا الغرض هو تأكيد للتعبير عن الرغبـــة الحديثة جدا التى تهدف الى الغاء الحرية الروحانية وتتخذها ارتباط كامل بالمادة أكثر منه بالاقتصاد • ولكن هذه المذاهب خاصة تعلن أن ليس العمل الفنى فقط هو الذى لا يمكنه الاستقلال عن البيئة ، ولكن أن الاعمال الفنية التى ستضطر لذلك لا تستحق الا الازدراء ؛ وأن واجب الفنان وعظمته هو على العكس من ذلك أن يتمسك بميل ثابت نحو وسطه ، وأن يعمـــل على أن تسود فيه الروح المقدسة ؛ سواء أكانت هذه الروح الطيبة موجودة من قبل (ويكفى ألا يهاجمه مذهب تحفظى) أو ســـواء لم توجـــد الا فى الحـــالة الفرضية ، وفى كلا الحـــالتين فعليه أن يســـاعدها ويؤيدها وأن يقضى على أعدائها « مذهب ثورى » •

ان فكرة كهذه عن وظيفة الفن كان يمكن الوصول اليها من ناحية عالم كان فيه التقسيم سياسيا فقط ، ويشتمل على القـوة التى يمـكن للفن أن يضعها فى خدمة السياسة هادفا الى تحريك هذه القوة ولا يقبـل بقائها الا اذا أعطته المساعدة أولا • ومن المعروف أن نابليون « والواجب المقدس » أثبت تماما أن السياسة لم تمتد الى عصرنا حتى نأمل فى أن تجمـع الفنان تحت قيادة عامة ، ولكنه لم يقم بها بطريقة علمية ادراكية أكثر ممـا فعـل اليوم ، فالانسانية التى ستعمل يوما على افناء الفنان الذى يريد الاستقلال عن بيئته لا تبـدو بعيـدة أبدا لأن السـوء أيضـا له وقت خاص به •

Ch. lalo "Le mala le temps pour lui"

وجهة النظر الاجتماعية فى الفن :

وبعد أن استعرضنا علاقة الفن والعمل الفنى بالبيئة سنتكلم عن بداية هذه النظرة الاجتماعية للفن التى جعلت من الفن صورة للمجتمـع يتأثر به ويؤثر فيه بالاضافة الى أثر البيئة الطبيعية والاجتماعية فى العمل الفنى •

ويعتبر القديس ديوس أول من اتجه الى الناحية الاجتماعية فى الفن ويعتبر متقدم عن منتسكيو الذى يعتبره الاوربيون عادة أول من اتجه من المفكرين المحدثين الى الناحية الاجتماعية العلمية •

والفضل يرجع الى « ديبوس » فى فتح الباب أمام مونتسكيو ليثبت أثر البيئة بعواملها الطبيعية المختلفة على الظاهـرات الاجتماعيـة وأهمها العادات والقوانين فى نظره ، كذلك له الفضـل فى توجيـه الأدب توجيها اجتماعيا بحيث أصبح الادب صورة تعكس روح الجماعة والادب بطبيعة الحال نوع من الفنون •

وكان تين Taine أول من عمل على تحقيق هذه النزعة الاجتماعية فى ميدان الفن وذلك فى كتابه فلسفة الفن •

ومذهبه فى الفن هو المذهب الطبيعى الاجتماعى : وهذا يظهر لنا مبلغ تغليب تين لبعض العناصر المادية والاجتماعيـــة على الحياة الفنية الجمالية وأهم هذه العناصر فى نظره هى : الجنس أو العنصر والبيئة ثم •

وكان تين يريد دراسة الفن كما يدرس العالم الطبيعى عالم النباتات• فالفن مثل النبات يتحدد بتأثير البيئة المحيطة وخاصـــة العادات والعـــرف والتقاليد • أى أن هذا الاتجاه العلمى الاجتماعى يقضى على كل أثر لفكرة القيمة فى الفن •

ويريد تين دراسة الفن دراسة وضعية نظرية لا معيارية عملية تقـــوم على المشاهدة وتقرير حال الانتاج الفنى من حيث ظروف انتاجه والعوامل التى تدخلت فى اخراجه والقوانين التى خضع لها والغـــايات الاجتماعيـــة التى يهدف اليها • كما يجب على الفنان أن يأخذ مثـــله الاعلى من الامـــور الواقعة وما حوله فى المجتمع ، بحيث أن الانتاج الفنى لا ينسلخ اطلاقا عن العوامل الاجتماعية وانما هو ينبعث من المجتمع فى عقلية الفنان كما تنبعث النظرية العلمية فى عقلية العالم الطبيعى • ويكون هـــذا المثـــل ـــ نسبيا ـــ متأثرا بالزمان والمكان ويشتق من الانسان باعتباره كائنا اجتماعيـــا يعيش فىمجتمع معين وزمان معين[1] •

هذه النسبية فى الفن تحققها عوامل أساسية وشروط عامة يتأثر بهـــا الانتاج الفنى وتصبغه بصفتها الخاصة ، هذه العوامـــل كما قلنـــا : البيئة ـــ الجنس ـــ الفترة وهى العوامل التى تعطى للفن صفته الاجتماعية •

---

(١) الفن وعلم الاجتماع : الدكتور عبد العزيز عزت ص ٢٣ •

١ ــ البيئة :

وهى العنصر الخارجى الذى يشعر به الفنان ويعكسه فى انتاجه ويراد بها شيئين :

(أ) البيئة الطبيعية أو الجغرافية :

وسنعرض هنا الى رأى تين ورأى أندريه موروا فى أثر البيئة الطبيعية ــ فيرى أندريه موروا أنه بعد أن ثبت أن الفن نظام اجتماعى فان هذا يدعو الى القاء نظرة سريعة على مدى الصلة بين الفن والظواهر الطبيعية ، أى بين الفن وظواهر البيئة المناخية ، من حرارة وبرودة ، وجبال وسهول وأنهار وغير ذلك وأثرها فى الطابع العام الذى يميز منه فن وأدب أمة من الامم • لأن الفنان نتاج بيئته . كما أن البيئة تكيف أسلوبه ومزاجه كما تكيف بنيته العضوية • وتؤثر فى حياته المادية والمعنوية كما تؤثر فى حياة أفراد المجتمع جميعا •

واذا أخذنا اقليمان متباعدان الدوائر القطبية الاستوائية مثلا • نجد أن الانسان فى الحالة الاولى يعيش نصف عمره فى الظلام ، يصارع البرد والجوع دون هواده ، منعزلا عن التكوينات الانسانية ، لايرى من حوله أشكال حيوانية نادرة لا يوجد تقريبا أى شكل نباتى ، محروم من نقطة الموازنة أو المقارنة ــ لا يملك من العالم الى نظرة متقطعة لا لون لها ، غير ثابتة تجعله منطوى على نفسه بيأس •

وفى الحالة الثانية : نجد الضوء الباهر والثروة المجهولة للاشكال الحيوانية والمعدنية ، والورود البنفسجية ، أى أنه يجد منذ نعومة أظافره قدرات وحاجات مختلفة تماما عن ذلك الذى يعيش فى المناطق القطبية •

ولهذا لا ننتظر أن يكون الفن الذى نشأ فى كلتا المنطقتين على قدر ولو قليل من التشابه والانسجام فالفن الذى تنتظره من الذى يعيش بعيدا

وسط البرد والظلام لن يكون الا ومضات مذبذبة للبيئة الطبيعية التى يعيش فيها تنعكس فيما يراه أمام عينيه أو ما يمسه فى نفسه ، بعكس الانسان أو الفنان الذى يعيش فى المنطقة الاخرى ، فانه سيصور بيئة مختلفة تماما عن الاولى وذلك كما قلنا نتيجة لاختلاف القدرات والمواد أو الموضوعات التى يعبر عنها كل منهما •

أى أن المنبت الجغرافى حاضر دائما مهما كانت صعوبة الوقائع الفنية، بالاضافة الى الملامح المادية التى تتصف بها الناحية ، والعوامل الاقتصادية التى تحددها والمكونات الجزرية التى ينطبع عليها الشكل الفنى من مغامرات وهجرات وثورات وحروب وكوارث كونية ونظم دينية أو اجتماعية التى شملت طويلا تقسيم الجماعة التى يعطيها المأكل والمأوى ، وكان تين يرى أن العمل الفنى يعتبر انعكاس للبيئة كنوع من النسخ الذى يستقى عناصره التقليدية من أخلاق الجمهور والعصر ، ومن المميزات الجغرافية للبلاد الذى يمثلها باخلاص • وهذا صحيح الى حد ما بالنسبة لفن العمارة والفن المجرد حيث كان من السهل أن نجد مظاهر دالة على البيئة الجغرافية والنباتية ، فالنخيل المصرى يتكرر فى قاعات المعبد مثلا ••

ولا يصعب علينا معرفة سبب تغطية مسرح معين من الشمال والآخر من الجنوب وكيف كانت الحصون المغلقة تحكم فى عصر حربى معين ، والاسوار الغير مفتوحة ، والساحات الداخلية فى مكان ما حيث يوجد تعدد الازواج والحرارة معا ، اذا كان الضوء المتحرك أو الاماكن المكفول بفتح منافذ فى الحائط ، وفن العمارة والموسيقى العربية تعبر بكل وضوح عن الصحراء المقفرة العارية التى تظهر الى المأوى الداخلى حيث يتحكم الفعل والصوت معا • حتى الملابس نفسها فن ، وجودها أو عدم وجودها توجد

تغيير جزرى للصورة الخاصة بالفنان وبعالمه الذى يعبر فيه ولقد سمعنا من قبل عن أثر الرياضة اليونانية على المظهر العادى فى النحت[١] .

هذا ما رآه تين Taine أو أحس به ، وما بقى فعلا فهو بالنسبة للنواحى التى يجهل فيها الفن تقريبا — مثل الملامح الطبيعية البشرية : الصين ، الهند ، المكسيك وأفريقيا . ولكن بوجه عام فان الفنانون يترجون عادة عن جمال الطبيعة التى تحيط بهم فى بلادهم من جبال ووديان وبحيرات وجنادل وشلالات .

(ب) البيئة الاجتماعيـــة :

وتشمل أثر العادات والعرف والتقاليد ونوع العمل السائد فى المجتمع وأثر الحضارة عامة على الفن ففى البلاد التى يشتد فيها العرف ويقوى يصعب أن نجد الروح الاباحية فى الفن كما تشاهد هذا فى الفنون الشمالية وخاصة الفن الانجليزى الذى يوصف عادة بالجدة والصداقة .

كذلك نوع العمل السائد فى المجتمع له تأثيره على الفن فمثلا فى المجتمعات الصناعية نجد أن الفن أصبح مهنة كسائر المهن يعيش منها الفنان ويتكسب منها ، ولكن التقدم الفنى هنا نتج من تخصص الفنان لفنه فقط أى لا يمارس أى مهنة أخرى الى جانب فنه .

كذلك ساعدت حرية العمل الفنان فى أن توجه الفن الوجهة الاجتماعية التى تتمشى مع التذوق العام للناس فى المجتمع[٢] .

أما من جهة الحضارة فالمعروف أن الفن يزدهر مع ازدهار الحضارة كما فى اليونان .

---

(1) Elie Faure : "L'Art et la Cociété" Encycloprdie Française, lère partie.

(ج) الجنـــــس :

يقول تين Taine أن الجنس هو العنصر الداخلى اذن وهو اندماج الفنان فى ميول قومه الفطرية ــ والفنان العبقرى فى نظر Taine لا يخضع لاشراق روحى يأتيه من على ، وانما الفن ظاهرة اجتماعية تتركب من عناصر اجتماعية مختلفة كأثر الاسرة والمحيط الخاص الذى نشأ فيه ومن تاريـــخ حياته والوسط العام الذى احتك به ونزعات قومـــه فى الفن وغير ذلك من العناصر التى تعمل على خلق نبوغه •

(د) العنصـــــر :

وهى العنصر الدافع المكتسب ، ويقصد تين بذلك التراث الفنى الذى يرثه الفنان من أجل أجيال الفنانين السابقين فهو عامل اختصاص له أثره الاجتماعى من جيل الى جيل وأنه يعبر عن الوسط الفنى والحالة الفنية التى وصل اليها المجتمع فى تطوره وعن مجموع الحقائق الفنية التى يمثلها تاريخ الفن فى المجتمع •

واذا تخطى هذه الاصول المتوازنة تعـــرض للجـــزاء من هيئة فنيـــة وظيفتها فرض احترام الاصول الفنية وتوجيه النقد الفنى ــ ولهذا وجب على الفنان أن يقيم لهذا العنصر وزنه فهو الذى يحدد ويفرض قيمة الانتاج الفنى من الوجهة الاجتماعية فهو مصدر التخصص ــ ويعتقد تين Taine أنه فتح بابا جديدا لدراسة الفن له الصفة العلمية والاجتماعية • وسار على هذا المنهج الاجتماعى كل من دور كايم ومدرسته وشارل لالو أستاذ هـــذه المـــادة فى الســـوريون •

ويرى كل من دور كايم ولالو أن الفن ليس بانتاج نظرى محض يشتق من طبيعة العقل الخالص وليس له شروط فكرية عامة خالدة وانما هو ظاهرة اجتماعية •

وأنه انتاج نسبى « دور كايم » تفيده ظروف الزمان والمكان فهو يتأثر بالبيئة فى مختلف أشكالها فمن حيث البيئة الجغرافية نجد فن أهل الشمال مختلف عن فن أهل الجنوب ، ومن حيث البيئة الاجتماعية نجد أن فى الارياف يختلف عن الفن فى المدن — ونجد كذلك من الوجهة الاجتماعية أثر للدين وللعادات والعرف والتقاليد فى الفن ، ويرتبط بالظاهرات الاجتماعية الاخرى كالسياسة والاقتصاد •

وترى هذه المدرسة أيضا أن الفن انتاج منظم فلكل فن طراز خاص • ففى الكنائس يوجد الفن القوطى •

كذلك يعتبرون الفن انتاجا اجتماعيا بحكم بأنه يتطلب جمهورا ، فعظمة الفن فى نظرهم تأتى فى كثرة اعجاب الناس به • فمثلا عظمة فولتير تقوم على كثرة قرائه •

والجمهور يتضمن :

(أ) الجمهور المختص بالفن •

(ب) جمهور الهواة والمثقفين فى الفن •

(ج) الجمهور عامة الذى يشعر بالجمال دون أن يفسره[1] •

أى أن الفن له الصفة الاجتماعية بناء على الرقابة التى يفرضها المجتمع على الانتاج الفنى والتى تتلخص فى القبول أو الرفض بالنسبة للفن

وتبعا لهذا فان الفنان يصبح كائنا اجتماعيا تتمثل فيه روح المجتمع الفنية ويكون انتاجه الفنى انتاجا من نوع جديد لا نفسى ، ولا ميتافيزيقى وانما هو انتاج اجتماعى لأن المجتمع يقود الفنان ويدفعه فى فنه ويتحكم فى

---

(١) المرجع السابق : الفن وعلم الاجتماع الجمالى — الدكتور عبد العزيز عـــزت ص ٨٤ .

تصوراته ومثله العليا وهو يحقق هذه المعانى الاجتماعية لأن الريشـة أو الآلة التى يستعملها الفنان ما هى الا انتاج اجتماعى يمثـل مستوى معين للرقى المـادى فى المجتمع •

المميزات الرئيسية :

لقد تمسكت الجنسية والبيئة الجغرافية الى حد ما بتحديد الاشـكال وهذه الاشكال نفسها تفرض مميزاتها الرئيسية على نماذج التعبير البعيدة عنهـا •

فالرجل الابيض مثلا يرى أن البيئة الجغرافية معتدلة ، تمده بالقوة والامل وتعمل على اظهار الميول الدائمة لمثالية الاشكال ، وهناك يجد نوعا من الاعتراض على نظام كونى يعتقد أنه يمكن اصلاحه •

والاسود على العكس ، فان البيئة عنده مخيفة مفـرطة أو واهنة — تعزل الانسان عن أخيه وتساعد على التأمل والكسل ، وتقوم الشراسة أو الطيبة الغريزية بالعناية بمواجهة المشاكل الاخـلاقية التى تظهـر الميول المستمرة لتهذيب الاشكال وهذا تسليم لتغيير النتائج الاجتماعية •

ومن دراسة هاتين الناحيتين فى مظهرهما الثابت توصـلنا الى بحث دقيق للدافع الجنسى ، والملاحظة الحيوية والتاريخية — حيث أن التعارض والتوافق يشتمل على أصل العمل الفنى •

آثار الاشكال الاجتماعية :

اضمحلال الانسـاق : Décadenceadu rythme

ان العمل الفنى له صـفة عامـة زائلة • والا لمـاذا اختفت كثير من المدارس التى أعطت الكثير من الانتاج الفنى الجميل — بينما نجد فى مصر وفى الشرق أو الاعمال الفنية قد استمرت طويلا وما زالت باقية ؟ ذلك لأن

الغرب كان الاهتمام أدبيا ، وهذا ينتهى من يوم لآخر بهدم الانساق الاساسى للفن نفسه كما أن سرعة الاختلاط والتنقل بين الشعوب قد أدى الى انقطاع مؤسف للتوازن الذى لا يمكنه ايجاد فن عالمى • وكان هذا سببا فى اندثار متابعة وأسباب وجوده[1] •

نهضة الانساق : La renaissance du rythme

الآلة :

يبدو أن الآلة قد قدمت لنا الوسيلة لاعادة تكوين كل شىء • كذلك فان أثرها الخارجى على فن التصوير والنحت والادب أدى الى نتائج طيبة •

كما أن السينما أظهرت لنا بوضوح الايحاء والملاحظة ، والمرور السريع المتقدم من الاتساق الآلى الى اتساق الحركة الانسانية • وعن طريق الكاميرات والضوء والصوت أدخلت السينما الانسجام الميكانيكى لكل الحركات الانسانية •

لقد رأينا اذن ليس اختفاء الفن فقط عن طريق حل المدارس المحلية • ومواجهتها العالمية التى استخدمتها وحركتها بعضها مع البعض الآخر ولكن أيضا بقاء وسائل فردية لعرض الانفعال النفسى على العالم ، والطرق الجماعية التى تعمل على اعادة خلق هذا الانفعال باعادة الشعور الانسانى والرياضى للعالم فى غريزة الانسان العامة •

وبعيدا عن الآلة وعن السينما نفسها فان ظهور الروابط وهذا الانسجام قد أحى من قبل الانسجام الجماعى الذى كان التعبير عنه هو فن العمارة الاستاتيكى • ثم ولد فن عمارة متحرك مثل الباخرة والسيارة •

---

(١) دائرة المعارف الفرنسية .
Elie Faure : "L'Art et la Société"
Encyclepédie Française, lère partie.

كذلك القطار والسيارة والطائرة •• وهكذا وهى فنون معمارية ذات جمال شكلى عجيب لأنها تخضع للوظائف التى تفرض عليها مع التمسك الدقيق بالأهمية العلمية والاقتصادية [١] • (Elie Faure)

تبين لنا اذن أن الاداب والفنون بأنواعها فى تطور دائم مستمر وذلك طبقا للتطورات الفكرية التى تحدث فى المجتمع وفى الاختراعات الحديثة بل وفى الفكر الانسانى نتيجة للتقدم الحضارى من ثقافة وفن •

التجمع وقوانين التطور الفنى :

La Collectivité et les lalo de l'rvolution artistique

لقد اتفق العلماء على هذا التطور الفنى على شرط ألا نخلط بين كلمة تطور وتقدم • وهذا التطور خاضع للقوانين ، وهذه القوانين الخاصة بالخلق وأحكام الذوق ، تخضع لتأثير الجماعة • وقد كان هذا مثار شك من المفكرين •

وقد كان الفرديون individualistes يعتقدون أن علم الجمال لا يمكن أن يكون غير ايحاء موضوعى مع احترامهم لما لا يمكن التكهن به فى الكتب الشخصية المبتدأة والخرافات تحت اسم الالهام الداخلى والغريزى • ولكن وجود الاساليب ، والانواع والمدارس فى كل أوقات التاريخ يدل بوضوح على استحالة اغفال الاعمال الجماعية فى علم الجمال — هذه الاشكال من النظم الاجتماعية سواء كانت مختلطة أو منظمة لا يخلو منها هذا العهد الذى يتسم بالانفرادية الفنية المبالغة • اذ انحصرت المشكلة فى هذا العهد ، وكانت مشكلة مزدوجة فهناك فعل ورد فعل مشترك للافراد على الحياة الجماعية للفن ، ومن هذه الحياة الجماعية على المبتدأين الذين

---

(١) المرجع السابق دائرة المعارف الفرنسية المجلد الاول .

يخلقون [١] أو يوجهون التطور • وهذا هو تأثير الجماعات الاجتماعية على الافراد الذين نواجههم هنا دون اغفال الآثار الفردية على المجتمع •

العوامل الاجتماعية الاساسية : Les principaux facteurs sociaux

هذه العوامل الاجتماعية تشتمل على حل بسيط لهذه المشكلة ، وهو مواجهة المجتمع ككتلة والاعتراف بأن الفنون وهى جزء لا ينفصل عن هذه الكتلة تتساق باستكانة الى التطور العام • وهذا ما أكده بعض فلاسفة التاريخ • وطبقا للموضوعية وخاصة لأحد « قوانين الحالات الثلاث » فان الفن مثل أى شىء آخر يسود الانسانية كلها بما فيها نظم اجتماعية دون تميز • ولكن النظريات الجماعية عن الحياة الاجتماعية قد أغفلت ما يوجد من نسبية مستقلة فى النشاط الرئيسى للطبيعة الانسانية • ويجب أن توجد دراسة تحليلية تضع لكل نصيبها العادل : سواء كان جنس race ، أو سياسة ودين ، واقتصاد ؛ وعائلة وتكنيك مادى[١] •

وسنعرض هنا لبعض المعطيات التى تؤدى الى التطور والتقدم • فهناك مواهب اجتماعية تتحلى بها الاجناس المختلفة تتفن كل منها نوع من الفنون بموجب المواهب الفلسفية الموروثة •

المعطيات الاجتماعية :

هناك شعب بارع فى نوع من أنواع الفنون كبراعته فى التلوين مثلا ، وشعب آخر يبرع فى الرسم أو النحت وهكذا • فقد نجح الـ Bushman فى الاعمال الرئيسية للفنون التشكيلية بالرغم من أن جيرانهم الـ Cofres كانوا متوسطين فيها ، وأسبانيا تفننت فى الموسيقى الشعبية أكثر من الموسيقى العالمية والعكس بالنسبة لالمانيا وهذا ينطبق على شعوب كثيرة •

---

(١) شارل لالو : الفن والمجتمع عن دائرة المعارف الفرنسية .

المعطيات السياسية : Les données politiçues

لقد كان يقال أنه منذ عهد مدام دى ستايل M.Du stail كانت توجد فنون ملكية ، أرستقراطية ، وديموقراطية ، وثورية ، وقد ترى فنون للوصاية وفنون دكتاتورية ، وفنون للسلام والحرب أجنبية ومدنية • وكثير من علماء الجمال من اليسار واليمين قد اقتنعوا بذلك اليوم •

ولكن الحياة السياسية كانت لها بعض الفاعلية على الموضوعات وخاصة الموضوعات الادبية والمسرحية بيد أنها لا تتفق تقريبا مع طابعها الذى يعنى الكثير بالنسبة لقيمتها الجمالية[1] •

المعطيات الدينية : Les données religieuses

يرى عدد كبير من المفكرين أن كل فن يعتبر ملهم حقيقى ويفترض ايمان معين ، وتقاس قيمته بالاخلاص لهذا الايمان وينظم فى تجمع كلى •

المعطيات الاقتصادية :

ان الفن حرفة ، وهو حرفة راقية ولكنه عمل وظيفى ، مع تعلم صناعته وسيادتها ، وعملائها وأماناتها الخاصة ، وتعتمد بعض الفنون وثيقا على منابع خاصة ، وعلى توزيع الثروات بين الطبقات الاجتماعية •

المعطيات الداخلية أو العائلية : Les données domestiques

نحن نعرف الدور الرئيسى الذى يلعبه الحب فى « الاشياء الفنية » بينما الحياة العائلية هى قبل كل شىء التنظيم الاجتماعى للغريزة البشرية ، والفن هو اللعبة الخيالية التى تنطبع على هذه الغريزة أكثر منه على القدرات الاخرى •

المعطيات التكنيكية : Les données techniques

لقد كانت الماديات دائما ذات أثر بالغ على النماذج والاساليب التقدمية •

الاختلافات فى مستوى القيم : Le dénivellement des valeurs

كان من النتائج العامة للتطور الفنى تقدم الفنون من مستوى منخفض الى مستوى مرتفع وكذلك بالعكس • فالرقص الشعبى القديم كان منبوذا فى وقت الغناء الجريغـــورى Grégoriens والـــ Polyphonie اللذين كونا الاشكال الخاصة للفن الكبير •

وقد يحدث أن ينقلب الفن السىء أو الغير جمالى ويصبح فنا جماليا شيئا فشيئا لأن الادراك الجماعى نسب اليه قيمة أعلى أو قيمة جـــديدة • كذلك فان مؤسساتنا الصناعية كانت جافة دائما أى بدون فن • ونحن نراها اليوم ونعجب بها وننقلأشكالها الى مبانينا الفاخرة وآثارنا العامة • أى أن المستوى الفنى بالنسبة لأى نوع من الفنون قد يزداد قيمة أو يقل مستواه وذلك حسب تطور القيم الفنية •

التطور النوعى للأشكال الفنية :

L'évolution spécifique des formes d'art

التكنيك الخـــاص بالشكل : La technique de forme

بين هذه المواهب الخارجية الخصـــبة فى الفن التى رأينا حـــدودها ، يهمنا أن نميز لكل فن موهبة داخلية خاصة ، وهى ما يمكن أن نسميه التكنيك الخاص بالشكل أو الاصطلاح الفنى للشكل ، وتفرق بينها وبين الاصطلاح المادى : فمثلا فى فن العمارة تبدو لنا الطبيعة المادية للحجر منطبقة عـــلى الاشكال الفنية أو الاساليب المختلفة وفى وقتنا الحـــالى يتخـــذ الاسمنت المسلح كل الاشكال المختلفة •

ومهما كانت المادة فان أى شكل من الفن التشكيلى سواء كان أدب أو موسيقى له طابعه الخاص وتطوره وحياته الخاصة • وتعتبر قيمته جماعية أكثر منها فردية ، ومعرض أيضـــا للنجـــاح أو للنسيان التى هى ظواهـــر

اجتماعية • وقد يكون الفنان مجهول فى عصره ولكنه يعمل من أجل المستقبل أى من أجل جمهور المستقبل ، بصرف النظر عن المـؤثرات ، والاكاويميات والمسابقات وكلها وقائـــع حقيقية ، ولكن قد تكون زائفة أو ثانوية • ويمكن القول أن التجمع والتطور الغريزى لأحد الفنون هى أعمال جماعية مقررة وذات طبيعة خاصة ، كتلك الخاصة بعبادة من العبادات ، أو بلغـــة أو نظام سياسى أواقتصادى •

قانون الثلاث حالات الجمالية : La lio des trois èlats esthètiques

ويجب أن تتجدد الاشكال الفنية على فترات خوفا من السبات الذى يفوض الفن الخلاق للروتين الذاتى للمهنة أو التقليد •

وهناك فى كل عصر فن العصور فن حى مثل قاعات التصوير وفن ميت مثل المتاحف والمقابر الخاصة بالاعمال الرئيسية • ويعمل كثير من المفكرين المعاصرين على معرفة قانون الحالات الجمالية الثلاث ، التى يمر بها كمحل تطور فنى كامل وهى ثلاثة أطوار : ما قبل الكلاسيكية والكلاســـيكية ، وما بعد الكلاسيكية •

حيث نستطيع أن نميز منهـــا البـــدائيات ، والبشـــائر ، وما ســـبق الكلاسيكية ، والتاذة ، والرومانتيكية المضمحله وغيرها كثير • وكل دورة تتطور مرة واحدة وهى مراحل النشأة ، والنضج والاضمحلال على التوالى•

وهذا يعنى أن قوة كل أسلوب تتطلب نهضة تشرع فى دورة ثـــلاثية جديدة • لأنه على خلاف القانون الخاص بأوجست كونت فان التقدم لا هو مستمر أو غير مستمر فى كل ما هـــو غير تام ، أو شـــاذ من الالتقـــاء أو

Les phasesactuelles des arts

الارتداد أو الظهور العارض • فبعض الطلائع يقال عنها انها حـــديثة ، أو كلاسيكية جديدة ورومانتيكية حديثة •

الاطـوار الحالية للفن :

ومن الصعب علينا أن نحدد اليوم المكانة الملائمة للفنون المعاصرة بين فنون التصوير التاريخية الواسعة ، ولكن المؤكد أننا دخلنا منذ هذا العصر فى نهضة للفنون المعمارية والزخرفية • وقد جمع منه التصوير خاصة منـذ سنة ١٩٠٨ نبذات لعصر بدائى بنائى ثورى جديد ••• الخ •

وتعتبر الموسيقى فن ولغة عالى أكثر من الفنون الاخرى ، ولا يبـدو أنها وصلت أيضا الى تجديد ملحوظ بالرغم من تقـدمها وبالنسبة لها فان الصورة الصوفية والانسجام الجديد قد خبى منذ عهد ديبيس Debussy

وترتبط العروض الاجمالية للفنون المعـاصرة بتلك الخـاصة بالنظم الاجتماعية الاخرى ، ولكن فى غير اندماج ، وهى حالة غليان دائم ، ومليئة بالوعود أكثر من الوقائع ، حيث يكون كل فن طور غير متوازن نسبيا مـع الاخريات ، كما هو الحال بالنسبة للاتساقات الاجتماعية الاخرى[1] •

بعد أن رأينا كيفية تطور الفن وقوانين هذا التطور وكيـف أن الفن يزدهر فى وقت من الاوقات ثم يخبو ويضمحل سنتكلم عن نبع دائم لهـذا الفن يستقى منه روحه ويزدهر الفن بازدياده ويخبو اذا خبى هذا النبـع هو الروح الشعبية التى تجد الفنون بشتى أنواعها بروح الحماس والجدة•

الروح الشعبية : L'âme populaire

هذه (الشعبية) أو الروح تتجلى فى الاوقات التى يجد الشعب فيها نفسه قادرا على التعبير عما فى أعماقه من معانى مختلفة سواء كانت معنى للحرية ، والرفاهية ، أو فى السعى وراء شىء آخـر هـو نسيان نفسـه ، ونسيان حياته القاسية ، والفن هو الذى يساعده على القيام بذلك • ولكى

---

(١) شارل لالو : المرجع السابق : الفن والمجتمع .
(2) La Beauté : Gaston Rageot "L'inspiretion sociale".

نوضح ذلك نجد أن معظم الدساتير والنظم الانسانية ، والحكومات والادارات والديانات والسياسات تهدف الى غرض واحد وهو تنظيم الشعب وادارته ، وامرته وبالتالى الزام كل ميوله وأمنياته وكل حاجاته •

وقد اتخذت معظم النظم القديمة مثل العصور الوسطى احتياطات واعية لتنظيم الشعب واداراته وتوفير الراحة والاستكانة له ، فأعدوا له طرق اللهو والتسلية ، مثال ذلك ما كان فى أتينا من الضوضاء ، وفى العصور الوسطى من أسواق وأعياد كنسية ، وغناء طقسى فى الاحتفالات الشعبية أى أن هناك مجهودات دائمة تبذل وبذلت لكى تحفظ للشعب الوهم المسمى بالحرية[1] •

ولكن يتمكن الشعب من نسيان بؤسه ، والليل الذى يجسم على صدره فانه يتجه عادة الى أى شكل من أشكال الفنون — ولكل شعب فن شعبى خاص به ، وهذا الفن تحررى الى حد ما لأنه طالما كان فنا شعبيا فانه يحرر الشعب من العبودية • وقد أظهرت الشعوب ذلك وحاولت التعبير عنه • ولكن كيف ؟ عن طريق الاساطير والشعر الملحمى ، لأن الروح الشعبية ولدت من الاساطير والاديان مثل الالياذة Odyséée, l'Illiade وأغنية رولان La Chanson de Roland وكلها أشعار بطولية •

واذا درسنا هذه الروح فى أى بلد من البلدان التى تمثلت فيها ، وخاصة الشعوب التاريخية مثل الشعب الفرنسى نجد أن كل شعب حاول خلق مستقبله بيده ، ولأن كل حركة تطور وطنى كانت تنظم عن طريق الشعوب •

وتغيير الاغنية من أهم الفنون الشعبية الحية — وقد قال فولتير عن الاغنية الفرنسية أنه ما من شعب يملك هذا القدر من الاغانى « وقال جان جلك روسو » أن الشعب الفرنسى هو الشعب الذى يغنى دائما •

---

(١) كتاب الجمال . La Beauté

تلك الاغنية الفرنسية تعبر عن الثورة التى لا تنضب ، فتعتبر هى الصدى الذى ينساب من النفوس وامتد من العصور الوسطى حتى اليوم • وتوجد الاغنية فى كل الاوقات فى الحياة الجمعية والفردية ، فهى فى الرحيل والعودة وفى تغيير الفصول ، وفى ساعات العمل ، وهى التى ساعدت على احياء أوقات البؤس والتعبير عنها ، أى أنها تظهر الطبيعة الكاملة التى تعكس كل الاحلام وكل سمات الحياة وغاياتها — انها تشبه وجه الشعب الذى فى كل مكان •

ولكن ماذا تعنى كلمة روح الشعب L'âme populaire

نحن نعرف معنى الروح الجماعية : أى عندما يكون الافراد مجتمعين معا فانهم يفقدون شخصيتهم الفردية ويجتمعون فى صفات الجماعة ويكونون مجموعة غامضة ويكون عندهم روح ليست لهم ، انها الروح الجماعية •

واذا وسعنا معنى هذه الروح الجماعية ووضعناها فى شعب أو وطن فان الروح الشعبية ليست فى المعنى الضيق للكلمة ، ولكنها الروح الخاصة بالتجمع الشعبى كله ، فهى توجد فى المدينة كما توجد فى الريف وفى المصنع والقرية — ونشعر بهذه الروح الشعبية عندما يقوم الشعب بأكمله ليدافع عن نفسه ويدافع عن مبدأ عادل انه اجماع الرأى الوطنى للذين يقومون على الموت ، هذا هو الشكل الواضح لروح الشعب •

وقد ظهرت أغنية النجوم فى فرنسا Chansons d'étoiles وسط العمل وهى خلق فنى نسائى ولكن هناك الانقلاب وهو ذو أهمية اجتماعية وأخلاقية كبرى ، ففى العصور الوسطى كانت هناك مآسى لكل من عاش فيها وخاصة بين جماعات الرجال المحاربين والذين هم فى صراع دائم بين الطبقات ، وفى خلق من العمل والفقر كذلك المرأة التى كانت عبده ، وكل

العبيد كانوا يدافعون عن أنفسهم ومن هنا كان النموذج الذى ملأ الأدب الفرنسى الهزلى والكوميدى ، والادب الرومانتيكى والغنائى ، نموذج المرأة الكاذبة الخائفة الخادعة ... انها كل العصور الوسطى وهى الشخصية المنتشرة فى الاقاصيص والاغانى والمسرحيات — الى جانب المرأة فان الحرب هى الاخرى كانت مادة للاغانى الشعبية .

ثم تقدمت الاغنية فى فرنسا وفى خارجها وأصبحت الوسيلة الدائمة للمقاومة الشعبية ضد السلطة وضد كل القوى التى تقف ضد الهامها . ثم حازت الاغنية الاهتمام وكان روكر متحمسا للاغنية فبحث عن التراجم الشعبية التى أصبحت اليوم تقريبا القائمة التى يستعين بها مؤلفى الموسيقى والشعر والقصص ، وهو الاقتباس من التراجم الشعبية التى تحمس القلوب : مثال : كارمن وهى احدى الاعمال المستوحاة من التراجم الشعبية الاسبانية .

ولا ننكر الدور الذى لعبته الاغنية فى مصر وخاصة أثناء العدوان سنة ١٩٥٦ فقد كانت الاغانى الوطنية تشتعل حماسا وكان لها دور كبير فى تجميع قلوب الشعب ضد العدو المشترك — كذلك لا ننسى الدور البطولى الذى لعبه الفنانون فى هذه المعركة من دفع للجماهير ، واشعال لنار الثورة فى قلوبهم حيث ظهرت الوطنية فى أجمل معانيها .

واذا تكلمنا عن الاغنية المعاصرة فلن نجد جديدا فى الواقع — وهناك اعتقاد فى أن الديمقراطية لا تعمل على تقدم الفنون ، لأن الديموقراطية تتملق الشعب دائما ولا تتوقف عن اعطائه الآمال وتسهل له كل طموح ، أى أنه فى المجتمع المتحرك حيث المرور المفاجىء من طبقة الى أخرى ، وحيث كل شىء مباح فانهم لا يضيعون وقتهم فى الغناء وبالتالى فليس هناك وقت للتعبير عن الاحلام ، أى أن الحياة الديمقراطية تهدف الى تقسيم وتشتيت

الروح الشعبية ، ولا تظهر هذه الروح الشعبية الا فى الاحداث الوطنية الكبرى — وليس هناك الا الوطنية التى تجعلنا نحس بالروح الشعبية والروح الجماعية — لأن الثقافة الديموقراطية لم تأل جهدا فى بث التفرقة والخلاف بين أفراد الشعب وأن تلقى اليه بالآمال العريضة ، فالوحدة لا توجد أبدا الا فى التيارات الواسعة التى خلقها التاريخ • ولكن هذا لا يعنى أن كل ما هو شعبى جميل ولكن نعنى بذلك أنه ما من عمل فنى عظيم الا متأثر به الشعب — فان الشعب فقط عندما يتأثر بشىء هو الذى يمكنه أن يقول هذا عمل جميل ؛ وهذا العمل هو صورة الانسانية — والتعبير الصحيح للعبقرية هى : أن العمل العبقرى هو عمل قادر على أن يظهر فى نفس الوقت للصفوة والجماعة ما هو مشترك بينهما أى ما به من حقيقة وانسانية • أى أن صوت الشعب هو صوت الانسان والانسانية •

القلب الانسانى : Le coeur humain

ويعمل الافراد على التعبير عما بأنفسهم ، وقد تحرر الرجال وظهروا من خلال الحضارات والعلوم فى عصر النهضة الذى فتح لهم فنون المستقبل عن طريق الصناعة وفنون الماضى عن طريق التاريخ • هذا الفرد الذى بدى لنا فى العصور الوسطى فى هيئة فلاح أو سيد قابضا فى كتد رائية أصبح الآن مواطنا ، كان يحلم بالعدالة والحقيقة ، والحرية وأصبح الان ينظم الطبيعة ومواردها ويحظى بالراحة الحديثة أى أنه أصبح فى مركز العالم ، فهو لا يرى فى الطبيعة أو فى العالم غير نفسه •

أى أن للفن دور كبير فى حياة الانسان اذ هو المعبر عما فى نفسه • كذلك وعن طريقة الفن يمكننا معرفة الحالة الثقافية والفكرية والاجتماعية التى كان عليها الفرد فى حياته فى شتى العصور وفى مراحل تطوره •

دور الفن فى حياة الفـــرد :

Le rôle de l'art dans la vie de l'individu

لقد كان هناك اندماج بين الممثل والمتفرج عند اليـــونانيين ، ولم يكن من السهل التفريق بينهما حتى فى الحفلات الراقصة الموسيقية كنا نجد أن المدينة كلها تشترك فى المشاهد التى تقام ، وحتى بالنسبة للقبيلة البدائيـــة كنا نجد الرقص السحرى يشترك فيه جميـــع أفـــراد القبيلة ، حتى أغانى الحرب وأغانى العمال تعتبر كلها أعمال فنية جماعية ، اذ كانت كلها حاجات اجتماعية ، تدخل فيها الحاجات الفردية بحيث ظل من الصعب مـــلاحظتها طويلا ، ولكن الحاجة عندما تضغط على الفرد يبدى شيئا من الانفعال القوى تجعله يدخل هذا الانفعال فى اطار اجتماعى ومن هنا نشأ أول دور للفن فى حياة الفـــــرد •

وقد كان الفن وسيلة لتنظيم رغبات الافراد النفسية والاجتماعيـــة التى كان يمكن أن تؤدى الى نتائج يعرفها المجتمع لولا تدخل الفن بتهذيبها، وقد أوضح Alain كيف أن الرقص الريفى قـــد هذب حـــركاته الاولى ، وسمح للافراد باندماج دون حياء أو ضعف به انه زاد من العاطفة فى حياة الجماعة • وقد كان الفن يمارس فى كل مظاهر الحضـــارات الانســـانية من حفلات زواج وطقوس دينية ، ومـــواكب المـــرح حتى المواكب الزواجية البطيئية كانت رمزا للقوة التى يمارسها الفن على العواطف •

التكوين الفنى للفرد : La formation artistique de l'individu

الاجتماعى والفردى :

ان الحركات الكبرى للجمهـــور هى التى تخلـــق الاعمـــال الفنية فى الحالات التى ترى فيها وصف لهذه الحركات الكبرى بالنسبة للاحتياجات الجماعية فانها تؤثر على كل من المشتركين من الجمهور •

وهذا الرأى يقف فى مواجهة الفرد الذى هو جزء من المجتمع ، ويرى الانفعالات التى سيبديها من ناحية والاحتياجات التى سيخضع لها مثل المجموع الذى هو جزء منه من العصر التاريخى والموقف الاجتماعى ، والموقف الاسرى ، والاهتمامات الاخلاقية والمادية لهذا المجموع ستؤثر كعوامل آمرة لتسير ردود الفعل الفردية عند تقييم كتاب مثلا ، أو تقدير صورة أو تمثال أو حتى احدى السيمفونيات[١] .

وهناك وجهة نظر أخرى ترى الفرد وكأنه مستغل تماما عن عصره ، وعن بيئته وعن أسرته ، أو على العكس خاضعا تماما لوسطه ، وتنعكس انفعالاته الغريزية طبقا لميوله الخاصة ، وهذه الانفعالات هى انفعالات النوع الانسانى كله .

ونحن هنا لا نعمل على تقريب الجانب الاجتماعى ، والجانب الفردى ولكن على توضيح المجالات الفنية التى يمارس الفرد فيها مبدأه فى التأثير على العمل الفنى ، والمجال الذى لا يظهر فيه هذا التأثير .

وهذا التقابل بين ما هو فردى وما هو اجتماعى نجده فى كل منا ، فاننا أفراد ولكنا أجزاء من جماعات اجتماعية نحس ونفكر ونتصرف كأفراد ولكن أيضا كأجزاء من جماعات اجتماعية[١] .

وقد ظهرت عدة نزعات وآراء بالنسبة لهذا الموقف الاجتماعى والفردى للفن نلخص بعضها فيما يلى .

النزعة الفردية الرومانتيكية :

يؤيد هذه النزعة أصحاب مبدأ الفن للفن منهم الذين يؤيدون النزعة الفردية للفن ، ويستنكرون تدخل المجتمع فى تقييم الآثار الفنية ، ويعتقدون

---

(١) أندريه موروا : عن دائرة المعارف الفرنسية . دور الفن فى حياة الفرد

(٢) المرجع السابق : أندريه موروا .

أن الفنان لا ينتج الا وهو فى معزل عن المجتمع ، وأن هذا الانفصال هو الذى يعطيه الوحى والالهام الفنى •

النزعة الفردية العقلية :

لقد كان كانت Kant يؤمن بالفردية العقلية فقد وضع للفروق قوانين تصلح لأن تكون قواعد لجميع العقول • ورأى كانت هذا كان يختلف عن آراء وموقف الاجتماعيين المعاصرين ، فالمجتمع فى نظره ذو طابع شكلى مثالى يكون فيه الافراد فى مستوى واحد بدون نظر الى اختلاف التربية والوعى الجمالى •

بداية النظرة الاجتماعية للفن :

لم تكن النشأة الاولى للموقف الاجتماعى بصدد الفن فمعلن تماما من رواسب المدارس القديمة، فكما نظر أفلاطون الى الفن من النظرة الاخلاقية ونظر اليه أرسطو من الوجهة التربوية نجد ان الاجتماعيين الاوائل قد نظروا الى الفن نظرة طبيعية واجتماعية معا ، فاعتقدوا أنهم يستطيعون التدليل على تأثير الطقس والعوامل الطبيعية على العبقرية الفنية ، وبالتالى على الشعور بالجمال الذى يعتبرونه حاسة سادسة • وقد أثرنا من قبل موقف تين Taine وكيف أنه يطابق بين علم الجمال وعلم النبات مثلا فيخضع الفن لثلاثة عوامل هى الجنس والبيئة الطبيعية والاخلاقية •

يرى أن الفن يرجع الى الجماعة • وهو يختلف عن العلم ذلك الفن يتميز بالطابع[1] النسبى ، وهو ينبع أصلا من نظام الجماعة القائم على العلاقات الوطيدة بين الافراد ، بينما يستمد العلم الى قوانين كلية مطلقة لا تتأثر بالاختلافات الفردية أو الاجتماعية •

---

(١) فلسفة الجمال : الدكتور محمد على أبو ريان •

وبما أن المجتمع هو مصدر « القيمة الجمالية » فان للفرد أيضا دوره فى عملية الخلق الفنى ــ ونلاحظ أن القيم الفنية توجد فى اللاشعور عند الفنان وتبقى هكذا مكتسبة الصبغة الفردية ولكنها حينما تتجه الى سطح الذات فانها حينئذ تصطبغ بالصبغة الاجتماعية بحيث يكون المجتمع فى النهاية المصدر الاخير للعمل الفنى وللقيمة الجمالية ولاحساسنا بالجمال •

التنظيم الاجتماعى للفن :

بما أنه قد تبين أن الفن وليد المجتمع ، ومن ثم فمن الضرورى أنه يخضع للتنظيم الاجتماعى ولما كانت النظم الاجتماعية متداخلة وذات تأثير متبادل فان النشاط الفنى فى المجتمع لابد من أن يخضع لطائفة أو شروط غير الجمالية التى تشكل فى مجموعها تركيبا فوقيا فى ميدان الفن •

العناصر غير الجمالية فى الحياة الفنية :

تتلخص هذه العناصر فى :

أ ــ المادة ، ب ــ الصناع ، جـ ــ الطبقة الاجتماعية والحياة السياسية ، ولها تأثير بالغ على النشاط الفنى لأن الانتاج الفنى يخضع لظروف المجتمع وعاداته وتقاليده •

ويرى الاجتماعيون وخاصة برودون Proudhon أنه عندما تنتهى حدة الصراع الطبقى فان كثيرا من الفنون ستختفى أو تتطور ، وهذه الفنون هى التى تقوم على الاحكام الجمالية للطبقات الاجتماعية ، وسينتهى الفن الانانى الفردى ويحل محله فن يخضع للتنظيم الاجتماعى ويقوم على الترف العام ، لا الترف الخاص بطبقة معينة فى المجتمع ، ويصبح النشاط الفنى خاص بالجماهير الكادحة فى الحفل والمصنع وتتلاشى شعارات الفن للفن ، وتحل محل شعارات الفن للجميع ، ولا يكون الالزام الاجتماعى للفنان قهريا فى هذه الحالة بل سيكون الزاما اجتماعيا ينبع من الذات المتأثرة بالمجتمع •

(د) النظم الدينية :

ان هذه النظم تؤثر تأثيرا فعالا على حياة المجتمع وفى نشـــاطه الفنى بوجه خاص ، وخاصة اذا لم يكن فى المجتمع أى تقسيم العمل ، ففى هـــذا المجتمع تصبح كل النظم الاجتماعية نظم دينية •

(هـ) النظام العـــائلى :

ويهتم الفن بالذات بالعاطفـــة كما قلنا من قبـــل La Passion التى يشقى فيها المحبون بسبب معارضة الاسرة والمجتمع « روميو وجـــولييت » كذلك يعنى الفن بتصوير نواحى الشذوذ وتجسيم العلاقات المحـــرمة التى لا تتفق مع حياة الاسرة •

والفن هو الذى يوفق بين حياة الفرد الاجتماعية وحياته العاطفية عن طريق ما يبتدعن من صور خيالية تكون وظيفتها اعلاء الغرائز المنحرفة التى تكتبها الرقابة الاجتماعية • فالفن اذن أداة ربـــط اجتماعى ووســـيلة تطهر نفس كما يقول أرسطو ومزويد ، لأنه لولا الفن لتعقدت الحياة الاجتماعية لأنه هو الذى يعمل كنفس لها •

ونضيف أيضا التعليم :

هذه هى العنلصر الغير جمالية التى تتداخل مع الفن كتنظيم اجتماعى•

فالفن بالنسبة للجماعة أو الفرد يمكن أن يكون موهبة تمـــارس دون أن تستهدف عرضا أو غاية وقد يمثل العمل الفنى أيضـــا هـــروبا من نطاق الاخلاق الشائعة ، أو محاولة للارتفاع بهـــا الى مثلها الاعلى أو محـــاولة للتطهـــــر •

وقد نجد أن كثيرا من التيارات الفنية لا تتمشى مع الظروف التاريخية فى مجتمع ما ففى وقت الثورة الفرنسية كانت هناك فنون تشكيلية تتم على الهدوء والسلام والعكس فى وقت لويس فيليب كانت هناك أزمات فنية •

ويخطىء المؤرخ اذا اعتقد أن الاعمال الفنية تترجم ترجمة صادقة عن عادات وأخلاق العصر الذى يؤرخ له منـذ يكون الاثر الفنى معـارضـا لاتجاهات العصر •

فالفن لا يحمل اذن طابع الالتزام الايجابى بالنسبة للمجتمع أى أنه ليس من الضرورى أن يكون خاضعا ومعبرا عن التيارات الاجتماعية اذ أنه قد يثور عليها وقد يعارضها وفى هذا يكمن جوهر الفن وعظمته[1] من حيث انه يعد المنفذ الاساسى للحرية الانسانية وللاستمتاع بهذه الحرية •

والاعجاب الفنى يشيع روح التضامن بين الناس ويكون بذلك عمـلا اجتماعيا مهما اعتقدنا أنه عمل فردى • وكما قلنا من قبل فان الفن يعتـبر صورة للعصر الذى يوجد فيه وصورة للمجتمع الذى ينبع منه •

وهكذا تكلمنا عن الفن كصورة للمجتمع والبيئة التى يعيش فيها الفنان وكيف أنه يخضع لهذه البيئة وسنذكر الآن عن الأدب الذى هو أمد الفنون وكيف أنه صورة للمجتمع الذى يظهر فيه •

الادب صورة للمجتمع[1] : La littérature, image de la société

نحن نحكم على أى عصر من الاثار الفنية والادبية التى يتركها لنا ، ولكن ما هو الدليل على أن هـذه الآثار الادبيـة والفنية تشـير الى ذلك العهد ؟ فمثلا اذا كان رجلا فى سـنة ٢٨٠٠ حاول أن يفهم فرنسـا ١٩٣٥ عن طريق ، الدراما والمسرحيات والقصص التى كانت متداولة فيها ، فانه سيقول أن الفرنسيين كانوا مشـغولين بالحب ، أما فى الروايات الحـالية العظيمة نجـد أن الاهتمام ليس الحب بل البطالة والحـالة الاقتصـادية والسياسية وظواهر اجتماعية أخرى تمثل حال المجتمع والريف الفـرنسى

---

(١) المرجع السابق : فلسفة الجمال .

(٢) الفن والمجتمع : عن دائرة المعارف الفرنسية .

الذى كان يتمثل فيه البؤس واذا أريد معرفة حياة أى جيل فيكون ذلك عن طريق آدابه وفى نفس الوقت بالبحث عن مجموعات الجرائد ، والمحاضرات الشعبية وأرشيف المحاكم لأن ذلك سيعطى صورة حقيقية وسنعرف الافعال كيف كانت وليست النفوس •

والفنان يبحث عن الحقيقة الدائمة ويجهل الابدية التى تستمر من حوله فيعجب بأعمدة المعبد البابيلونية ، ويحتقر مدفأة المصنع ، فما هو الاختلاف فى الخطوط : عندما ينتهى عهد القوة المحركة بنا القمم فانهم سيعجبون بالآثار الباقية من المداخن العالية • كما يعجبون اليوم ببقايا أعمدة المعبد • فنحن نبحث دائما عما هو بعيد عنا • وقد كان سهولة الاسفار التى نتجت من الاختراعات الحديثة أثر على الادب الذى استفاد من ذلك كثيرا وأتاح له فرصة الانتشار والاعجاب به •

وأصبح الأدب يبحث عن موضوعات فيما حوله وقد يذهب بعيدا للبحث عن موضوعات فالأدب هو حتمية النفس المحبة للهروب ولذلك يذهب الى البعيد المختلف الذى ساعدت على الوصول اليه سهولة المواصلات فيعيش فى الوسط ويستقى موضوعاته منه وقد يترك الأديب حياته أو مجتمعه زمنيا ليعيش فى الزمان والمكان الذى يجرى فيهما موضوعه • مثلما فعل راسين Racine عندما وصف بلاط بيريس رغم أنه لم يزور Buthare ولم يترك زمنه وحياته الا زمنيا • فكثير من الكتاب يفضلون الموضوعات التى تبعدهم عما يعيشون فيه — والخروج عن النفس وكأنهم واصلون من بعيد يكشفون عالما بعيدا وكأنهم يعيشون فيه •

وفى القرن التاسع عشر أخذ الكلاسيكيون الفرنسيون يعملون على تقليد اليونان فشخصياتهم كانت أبطالا للاحساس وليس للعمل ويعتبرون لافونتين La Fontaine الوحيد من الكلاسيكيين الذى كان له جانب من

الواقعية فى مهنته فقد رأى الانسانية فى بلده وفى حيـــه ، ووصـــف الحياة بواقعها الحى ، فتكلم عن بائعة اللبن وعن الراعى ، ولم يبعـــد العمـــل عن الفن الادبى •

ولكن القرن التاسع عشر (الذى بدأ مـــع بلزاك) تقريبا فكان حتمية اخضاع الانسان للاحساس بالرغم من الاتجاه الشـــعبى الكبير الذى بدأ مع بلزاك وفيكتور هيجو Victor Hugo

فقد جعل فيكتور هيجو الرومانتيكية اجتماعيـــة فى كتاباته ، وأكد أثر الثقافة الاولية الاجبارية فى تغير الفن الأدبى •

واليوم اختفى الشعور الشعبى من الشعر ، ولم يصبح اجتماعيا مثل النـــثر •

فـــن الكتابة : l'art d'écrire

والنثر أصبح هو الفن الحديث فى الكتابة بينما كان الشـــعر بالنسبة للكلاسيكيين هو المادة الغالبة ، ولكن الرومانتيكية سادت بين الشعر والنثر، وأصبحت القصة تعتبر الشكل الديمقراطى الادبى ، كما كانت التراجيديا هى الشكل الاورستقراطى ولم تكن للسرد فقط بل كانت تعتبر بحثا تحليليا — وبهذا أصبح الكاتب القصصى خاضعا للمناهج العلمى التى تســـاعده فى تحليل الفرد ، بالاضافة الى المناهج التاريخية لمعرفة الاحـــداث وأصـــبح لزاما عليه أن يستقصى جيدا قبل الكتابة وذلك فيما هو يختص بالمجتمع •

وهناك فرق بين الكاتب الاجتماعى L'ecrivain Socàl والـــكاتب الباحث مثل اميل زولا I.zola كان كاتبا اجتماعيـــا ، L'eonian d'évquét ولكن ملرسيل بروست لم يكن كذلك بالرغم من أننا نستطيع أن نقول عنه كاتبـــا اجتماعيا ، فكل شخصياته حقيقة ، وقد أبدع الاستقصاء عنهم ، وساعـــده وجوده بينهم على ذلك ، وهذا مالم يكن متاحا للـــكاتب الاجتماعى الا اذا

كان بروليتاريا • فالفرق بين الكاتب الذى يعيش فى بيئته « ومارسيل بروست Proust » خير ممثل له ، وبين الكاتب الاخر كان كبيرا لأن الاول كان يصف أشياء ووقائع يراها يوميا أى كانت جزء من حياته — أما الكاتب الباحث فكان مضطرا لتتبع موضوعه فى الواقع الغريب أو البعيد عنه ، فيعمل على تطبيق عمله دون أن يشارك فيه بل يدور حوله ، وهنا تكمن صعوبة الفن الاجتماعى •

وقد ظهر الادب الاجتماعى الحديث أثر الحروب المتتالية ، وبعد الحرب الاولى سنة ١٩١٤ خضعت الفنون والآداب للاحداث الحقيقية وطفى البحث على الخيال • ولكن الحياة الصناعية الجديدة شغلت حياة الافراد ولم تترك الا القليل للفن ، وأصبح الفنان الاجتماعى يصف عالم غريب عنه ، بيد أن انتشار الثقافة الفنية والادبية أدى الى ازدهار الفنون والآداب الاجتماعية[1] •

وقبل بينا من قبل فلسفة تين Taine عن اعتبار الفنان والاديب مترجم للعصر الذى يعيش فيه وأن العصر هو الذى فرض عليه أو أثر فيه أكثر من أن يبحث عليه بنفسه •

فهو يستقى التجربة من واقع المجتمع الذى يعيش فيه أو من المجتمع الانسانى كله وما فيه من مشاعر وأحاسيس ومشكلات اقتصادية أو سياسية ، أو ثقافية أو خلقية فالمجتمع فيرا هو المنبع ، وهو المصب فى آن واحد • وقد ظهر هذا اللون منذ ظهور التفكير قديما فى تراجيديات يوريبيويس وكوميديان أرسنوفان ، وميناندو ، وظهر الادب الفرنسى عند موليير Molière ، وبلزاك Belzac ، وموياسان ، وأميل زولا Emile Zola

---

(١) المرجع السابق .

وظهر فى الادب الروسى عند تشيكوف ، وجوجـول ، ودستوفسكى ، وتولستوى •

وفى الادب الانجليزى عند تشـارلز ديكنز ، وشريدان ، وويلـكى ، وكولنز،وبرنارد شو وظهر كذلك فى الادب الامريكى عند أرنست همنجواى، وأثر ميللر ، ونفس ويليامز وفى الادب الايطالى عند تيراك،والبرتومورافيا

أما فى الادب العربى فظهر عند نجيب محفـوظ ، وتوفيق الحـكيم ، ويحى حقى ، وطه حسين ويوسف ادريس وغيرهم كثير •

ولا يخلو أدب أمة من الامم بوجه عام ، من هذا اللون الذى يصـور حياتها ومشكلاتها ويسجل أحداثها القومية والاجتماعية — ويقـوم هـذا اللون من الادب على قوة التعبير عنها والدعوى التى تقـوم المجتمـع فى مرافقه كلها ، والسير به نحو طريق أفضل •

وهذا يجعلنا نبحث عن الاهداف الثقافية والاجتماعية للأدب ، وتلك الاهداف تتلخص (نقل المعارف المختلفة ، والقضايا المتباينة ، والمشـكلات المتنوعة الى أفراد المجتمع والتعبير عن شتى التجارب التى ينبغى أن يقفوا عليها ليكونوا على بيئة من أمر أنفسهم •

وقد كان أرسطو يرى قـديما أن الادب يهـدف الى تطهـير النفس البشرية[1] الانفعالات باثارة عاطفتى الخوف والشفقة ، بما يعرضـه من مآسى فتتخلص النفوس من مشاعرها الشريرة ، لتتغلب الطبيعة الخيرة •

كذلك نجد حديثا عند شارل لالو Ch. lalo آراء أخـرى يرى فيها أن الادب يهدف الى ادخار الطاقة ، أى يعوض النفس عن المعـاناة الفعليـة فى الحياة ، وينفس عن مكبوتاتها • ومن هنا يكون الادب عـلاجا نافعـا لمشكلات وآفات اجتماعية ، وبيصر الناس بعواقب السلوك السىء •

---

(١) الادب والمجتمع محمد كمال الدين يوسف طبعة القاهرة ١٩٦٤ ص ٤٠ وما بعـدها .

وطبقا لهذه الاهداف يقوم الادب عند الكلاسيكيين للدعـوة الى فهم النفس الشريرة وتصوير عواطفها ، ودوافع سلوكها • وهذا الهدف يقترب من أهداف (فرويد) فى التحليل النفسى ، الذى يغرس فيها مكونات النفس، وما يعتل بداخلها من صراعات وأهواء وانحرافات وعقـد • وتهـدف الى تخليص النفس منها •

وهنا عدة أهداف أخرى للادب مثل نقد الحياة الفـردية الاجتماعية باعتبار أن الفرد يتأثر بالبيئة والاوضاع الاجتماعية • وباعتبار أن الادب يعرض لهذه الاوضاع سواء عن طريق المأساة أو الملهاة فى المسرح ويحاول تجسيمها أو السخريةمنها ، بقصد تقديم معوجها والكشف عن بذور الشر فيها ــ والادب بذلك يهدف الى التهذيب الخلقى والاجتماعى • عن طـريق الممارسة والتجربة الحية • أى بهذا يعتبر الادب ذو هـدف توجيها يقـود الافراد نحو تطوير حياتهم ، كما أنه فى نفس الوقت صدى لمـا يعتمـل فى نفوسهم ومشاعرهم ، وما يوجد فى المجتمع من مشكلات • ؟

ومن خلال دراسة التاريخ الادبى نجد أن وراء كل ثورة سياسية ، أو حركة قومية أو فكرية كتاب حركوها ، ومهـدوا لها الطـريق • ومثال لذلك الثورة الفرنسية ١٧٨٩ ، وحركة التحـرير الامـريكية ١٨٦٠ ، والثـورة الروسية سنة ١٩١٧ ، والثورات المصرية سنة ١٩١٩ ، ١٩٥٢ •

ونقصد بذلك فقط أن للادب دورا توجيهيا فى المجتمع لا يقل عن دور السياسة أو سائر العلوم الاخرى ، ان لم يكن التوجيه الفكرى أعمق تأثيرا وأشد خطرا ولا ننسى الدور الذى تقوم به العبقريات الادبية التى تسبق تفكير مجتمعاتها • ويمكن أن يشبه دور الادب بدور القائد فى المعركة الذى يحرص دائما على استمرار اتصاله بجيشه والمجتمع هنا هو جيش الادب ، بشتى أوضاعه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية وغيرها •

واذا درسنا الوسائل التى تصل بها هذه الاهداف الى مقاصدها نجدها عديدة ، منها المسرحية بنوعيها التراجيدى والكوميدى ، وكلاهما يشتمل على أنواع عدة ومنها المسرحية الاجتماعية والمسرحية النفسية والتحليلية ، والمسرحية الساخرة أو التكهمية • ووجدنا الى جانب المسرحية القصة القصيرة ، والرواية ، والمقالة النقدية التحليلية ، والدراسة الاجتماعية الادبية • وكلها وسائل تخدم الادب وتوصل رسالته الى المجتمع

نستخلص مما سبق أن الفن دقيق الصلة بالمجتمع يؤثر فيه ويتأثر به، وأن العمل الفنى مرتبط بالبيئة سواء أكانت بيئة طبيعية أو اجتماعية ، وأن هناك عدة وجهات نظر اجتماعية فى الفن كذلك له عدة وظائف اجتماعية من تربوية الى أخلاقية وسياسية واقتصادية واجتماعية •

وقد رأينا العوامل الاجتماعية الرئيسية التى تعمل على ازدهار الفن بالاضافة الى المواهب الاجتماعية الفطرية والمكتسبة التى تغذى الموضوعات الفنية والادبية والروح الشعبية التى تعتبر نبعا غزيرا للعمل الفنى — ولم ننسى دور الفن فى حياة الفرد وما له من أثر فى حياته الاجتماعية ، واستعرضنا أخيرا أن الفن والادب صورة للمجتمع الذى يظهر فيه يعبر عنه وعن آماله وأفكاره وعن حياته النفسية والاجتماعية بشتى معانيها •